المحور الثالث: الأسس البنائية للكتابة الدرامية

المحاضرة السابعة وحدة الفعل المسرحي وبنيته.

تعد المسرحية في بنائها الشكلي عبارة عن قصة محركها الأساسي الفعل الدرامي الذي يصنعه المؤلف لتجسيد صراع ومواقف الشخصيات، وحينما شرح أرسطو أجزاء التراجيديا قال:" أنها محاكاة لفعل جاد وتام" أي أن الفعل عبارة عن حكاية كاملة غير مجزئة، فكل جزء منها يستمد وجوده من الكل، والحركة هي التي تعمل على ترابط أجزاء الفعل ، بحيث تشكل سلسلة مترابطة الأجزاء فكل موقف يمثل جزءا من الفعل -بعبارة أخرى- إنه لو فقدت أية حلقة من هذه السلسلة انفرط عقدها وغاب معني المسرحية واضمحل صراعها.

يعتبر الفعل من أهم عناصر الدراما، بل الدراما هي الفعل، وكلمة دراما مشتقة من الكلمة اليونانية dran ومن الانجليزية (to do)[i]. والفعل صفة إنسانية يتم عن طريق التمثيل، أي فعل مرئي وحركة داخلية لما يتابعه المشاهدون من أحداث، وهو لا يعني أعمال ونشاط الإنسان فحسب، وإنما دوافع هذه الأعمال المنبثقة من قوة الإرادة الداخلية[ii]. حيث ركز أرسطو على محاكاة الأفعال بقوله:" ولو برع المرء في تأليف أقوال تكشف عن الأخلاق وتمتاز بفخامة العبارة وجلالة الفكرة، لما بلغ المراد من المأساة. إنما يبلغه حقا بمأساة أضعف عبارة وفكرة، ولكنها ذات خرافة وتركيب أفعال"[iii].

إذن الدراما هي حكاية يمثلها ممثلون على خشبة المسرح أمام جمع من المشاهدين، ولا يمكن للفعل أن يكون اعتباطيا أو عبثيا، وإنما هو فعل مباشر وسريع لا يقتصر على الحركة والقول، ويجب بالضرورة الإشارة إلى النموذج الكلي للأفعال التي يقوم بها الممثلون، أي أن الفعل يكون مثل "الموجة في ساحل البحر، تكون صغيرة ثم ترتفع وتكبر بحركة مستمرة من الارتفاع والسقوط حتى تنكسر وتتحطم في أعلى نقطة لها على ساحل البحر" [iv]، إذ "يتوجه الاهتمام الرئيسي في الدراما نحو بطل المسرحية،

وتمتلك الشخصيات الأخرى مقارنة معه أهمية ثانوية" [v]، فمعظم الأحداث تدور حول هذا البطل وتتأثر به ويتأثر بها أكثر من سواه من الشخصيات[vi].

إن تعريف أرسطو في كتابه فن الشعر للتراجيديا أنها "محاكاة لفعل جاد تام ونبيل له طول معين في لغة ممتعة مشفوعة بكل نوع من أنواع التزيين الفني" [vii]، إذن هي تقليد لفعل في الحياة بصورة فنية جادة ونبيلة؛ أي أنه محسوب ومهم ومؤثر ذو أبعاد بطولية، يحوي فكرة كاملة تنم عن طبيعته وتوضح أسبابه ودوافعه وما يترتب عليه من آثار ونتائج، ويرى أرسطو أن يكون للفعل بداية ووسطا ونهاية[viii]:

البداية: شيء لا يسبقه شيء آخر ويتبعه بالضرورة شيء آخر، وهي بهذا التعريف تمهيد للأحداث اللاحقة طبقا لقانون الضرورة والاحتمال (ضرورة تحقيق الواجب، واحتمال الموت من أجل ذلك)، بحيث يبدأ الكاتب الدرامي لمن قمة الأزمة والموقف.

الوسط: هو شيء مسبوق بشيء آخر ويتبعه شيء آخر، ويتم فيه عرض أحداث المسرحية وتفاصيلها الدقيقة.

النهاية: وهي المسبوقة بشيء آخر، ولكن لا يتبعها بالضرورة شيء آخر، وفيها يتم إبراز ذروة الأحداث وحلولها.

ويشير أرسطو إلى قسمين من أقسام الفعل، هما[ix]:

الفعل البسيط: يكون حدوثه متصلا وواحدا، ويكون فيه التغيير دون أن يكون هناك انقلاب أو تعرف.

الفعل المركب: هو الذي يكون فيه التغيير نتيجة مباشرة لانقلاب* أو تعرف** أو بهما معا.

يضع الكاتب المسرحي الذكي الفعل في حجم يناسب ويخدم الفكرة بصورة مكثفة، بالدخول في لب الموضوع مباشرة، من نقطة تأجج الصراع، إذ يربط الفعل بشخصية بطلة تسعى وراء أهدافها وتدفعه إلى الأمام، وقد يكون منشط هذا الفعل شخصا آخر (بطل نقيض)، وإذا شعر المؤلف بنفاذ طاقته المسرحية عليه أن يهيئ دافعا آخر يعمل على صيرورة الفعل حتى النهاية وفق مبدأ السببية***.

تبدأ المسرحية بفكرة ظهور قوة جديدة تدفع بالفعل إلى الأمام وترفعه إلى الذروة *، وتكون كقطرات الماء التي تقطر في كأس واحدة تلو الأخرى، وتأتي قطرة أخيرة تفيض الكأس، فيصل الفعل هنا إلى الذروة، وتصل العاطفة إلى الانفجار أو نقطة التحول، أي أنها تجمع كل المشاهد التي تسبقها، بحيث تصب فيها وتنتج لنا ضرورة البحث على حل سريع، قد يكون بالسلب أو الإيجاب.

ينمو تسلسل الأحداث وتتأزم الأوضاع ولا بد للفعل من حل، حل يكون واقعيا ومبررا يسير وفق مبدأ الضرورة والاحتمال، " والحق أن العملية كلها يجب أن تكون محتملة، بل ضرورية وحتمية" x، وهذا الحل غالبا ما يكون مع سقوط الشخصية أو موتها، وهكذا تنتهي العملية.

---

[i] - ينظر، ستيوارت كريفش، صناعة المسرحية، م ن، ص17.

[ii] - ينظر أرسطو، فن الشعر، تر إبراهيم حمادة، مكتبة الأنجلو مصرية، 1983، ص100.

[iii] - أرسطو طاليس، فن الشعر، تر: إبراهيم حمادة، م س، ص 21.

[iv] - ستيوارت كريفش، صناعة المسرحية م س، ص17.

[v] - أنيكست، تاريخ دراسة الدراما، ترجمة ضيف الله مراد، منشورات وزارة الثقافة المعهد العالي للفنون دمشق، 2000، ص252.

vi- ينظر عبد القادر القط، من فنون الأدب المسرحي، دار النهضة العربية بيروت، 1978، ص 26.

[vii] - أرسطو فن الشعر، تر إبراهيم حمادة، م س، ص95.

[viii] - ينظر م ن، ص101.

[ix] - ينظر أرسطو فن الشعر، ترجمة شكري عياد، م س، ص 70.

* الانقلاب: هو التغير المفاجئ الذي يطرأ على حال البطل فيحوله من السعادة إلى الشقاء، ودائما ما يأتي بعد التعرف أو الاكتشاف، فالتحول هو التغيير الجذري في مجرى الأحداث، وانقلاب الفعل إلى النقيض دون أن يكون ذلك متوقعا، وكمثال على ذلك مسرحية أوديب، فالتحول عند أوديب كان مع مجيء الرسول وهو متيقن أن ما سيقوله سيجعل أوديب سعيدا، وينفي شكه بأنه تزوج أمه، ولكن

ما قاله الرسول أظهر حقيقة مخالفة لذلك تماما، أحدث أثرا عكسيا على مجرى الأحداث،راجع فن الشعر لأرسطو،ص 70 وما بعدها،وكذلك شكري عبد الوهاب النص المسرحي،ص57.

** التعرف: وهو الإدراك والتمييز، أو محاولة معرفة المستور، وبذلك يتحول حال البطل من الجهل بما كان خافيا إلى العلم بع، وله عدة طرق، كأن تكتشف الزوجة مثلا خيانة زوجها عن طريق إحدى الدلائل كأحمر الشفاه في قميص الزوج مثلا وغيرها.

*** تعتبر السببية من المبادئ الأساسية في عملية البناء الدرامي، والتي لا يجوز أن تكون محض تسلسل أو مقاطع غير متصلة ببعضها، إذ لا نعبر: مات الملك ثم ماتت الملكة، بل مات الملك ثم ماتت الملكة حزنا، أي أن الفعل يحتوي في ثناياه السبب والعلة والترتيب، فتتابع الأحداث لا يحتوي في حد ذاته أي شكل من أشكال التعقيد أو حل للصراع، ولكن وصف الأسباب وتصوير آثارها، كما أن ترابط المشاهد ببعضها لا يجعل من الفعل والشخصية مختلفين، وهو ما يجعل الفعل يُدفع بتيار قوي نحو النهاية.

* الذروة: هي النقطة التي يرتفع فيها الفعل إلى أعلى درجة تصاعده، وعندها تكون الحادثة أكثر أهمية وإثارة للتشويق.

[x]- ستيوارت كريفش، صناعة المسرحية م س، ص 29.